السِّيْمِيَاءُ في تُراثِ الْعَرَبِيَّةِ[1] "جُذُورٌ وَ أُصُولٌ"

أ. حمدية زدام[2] جامعة الشلف

قال الْجُرجاني عبد القاهر في أسرار البلاغة :"تَجْرِي اللُّغَةُ مَجْرَى العلاماتِ و السِّماتِ و لا مَعْنَى للعلامةِ و السِّمةِ حتَّى يَحتمل الشيءُ ما جُعِلَتِ العلامةُ دليلاً عليه"[3].

تغرس السِّيْمِيَاءُ جذورها في عمق التراثِ العربي ، إِذِ الباحثُ في هذا المجالِ ، لواقعٌ في تراثنا على نظرياتٍ ومفاهيمَ بلاغيةٍ وبيانية، تتصلُ اتصالاً مباشراً بالمصْطلحاتِ الحداثيةِ ذاتِ العلاقَةِ بهذا المجال السِّيميوطيقي المسْتَحْدَثِ.

السِّيما في الذِّكر الحكيم :

وردَ لفظُ "السِّيمَا" و مُشْتَقَّاتُهُ[4] كثيراً في القرآن الكريم، قال الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم :

(لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) [5]

وَ صدقَ اللهُ العظيم في قولِه الكريم :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [6].

المسوّمةُ : عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ المسوّمة الراعية ، و المطهمةُ الحِسَانُ.

و قال مكحول : المسوّمة الغُرَّةُ و التحميل، و قيل غير ذلك[7].

و قال تعالى :(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ● إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ● بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)[8].

مُسَوَّمِينَ : أيُ مُعَلَّمِين بالسِّيما [9].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان سيما الملائكةِ يومَ بدرٍ الصُّوفُ الأبيضُ، و كان سيماهُم أيضاً في نواصي خيولهم.

و عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه في هذه الآيةِ (مُسَوَّمِينَ) قال : بالعهن الأحمر ، و قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه : أَتتِ الملائكةُ محمداً صَلَّى اللهُ عليه و آلهِ و سَلَّمَ مُسَوَّمِينَ بالصُّوفِ، فَسَوَّمَ محمدٌ و أصحابُهُ أنفسَهُم و خَيْلَهُم على سِمَاهم بالصُّوفِ.

و قال قتادة و عكرمة (مُسَوَّمِينَ) أي بسيما القتال.

و عن ابن عباسٍ قالَ : كان سيما الملائكةِ يومَ بدرٍ عَمَائِمُ بيضٍ ، قَدْ أَرسلوهَا في ظهورِهِم، و يومَ حُنَيْنَ عَمَائِمُ حُمْر.

و قال جلَّ شأنُهُ :

(وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ) [10]

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) [11]

(وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) [12] صدق اللهُ العظيمُ [13].

و قال تعالى – أيضاً – في كتابه السَّماويَ العظيمِ ، أَلاَ و هو القرآنُ الكريمُ.

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ • مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) (14)

و كذلك :

(قالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ • قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ • لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ • مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) (15)

(مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ)

مسوّمة : أي مُعَلَّمة. كلُّ حَجَرٍ مكتوبٌ عليه اسم الذي ينزل عليه (16).

و أيضاً ؛ مُسَوَّمَة : أي مُعَلَّمَة ، أي مكتتبة عنده بأسمائهم (أسماء المسرفين) كلّ حجرٍ عليه اسمُ صاحبهِ(17).

وَ هَا هُوَ ذَا (صَلَّى اللهُ عليه و آله وَ سَلَّمَ) :

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (18)

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

قال ابنُ عباسٍ : يعني السَّمَتَ الحَسنَ.

و قال مجاهد : يعني الخشوعُ و التواضعُ.

و قال السدي : الصلاةُ تُحَسِّنُ وجوهَهم.

و قال بعضُ السَّلَفِ : من كَثُرَتْ صلاتهُ باللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُه بالنَّهَارِ.

وَ قِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ(19).

و حيثُ (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ) (20)

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) أي بعلاماتٍ تظهرُ عليهم ، و قالَ الحَسَنُ وَ قتادةُ : يُعْرَفُونَ باسودادِ الوجوهِ ، وَ زُرْقَةِ العيونِ.

و هذا نقيضُ ما يُعْرَفُ به المؤمنونَ : بالغُرَّةِ و التحجيل من آثار الوضوء[21].

السِّيماء في الحديث الشريف :

وردت اللفظة " سِيمَا " في أحاديثِ الرَّسُولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلاَمُ.

قال الرَّسُولُ: (لَكُمُ سِيمَا لَيستْ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ) [22]

و في روايةٍ أخرى (سِيمَاءُ أُمَتِّي لَيْسَ لأَحَدٍ غَيْرُهَا) [23]

و كذلك (سِيمَاءُ هَذِه الأمّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِن آثَارِ السجُودِ) [24]

و أيضاً : (سِيمَاهُمْ أَنَّ منهم رَجُلاً أَسْوَد) [25].

وَ فِي الحديث الشريف أَمَرَ صَلَّى اللهُ عليه و آلهِ وَ سَلَّمَ أصحابه يَوْمَ بَدْرٍ بقوله الشريف : سَوِّمُوا ، فَإِنَّ المِلاَئِكَةَ قَدْ سَوَّمَتْ ، أَيْ اعْمَلُوا لَكُمْ عَلاَمَةً يَعْرِفُ بِهَا بَعْضُكُمْ بَعْضاً.

وَ فِي حَديثِ الخَوَارِجِ : سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ ، أَيْ عَلاَمَتُهُمْ وَ الأَصْلُ فِيهَا الوَاوُ ، فَقُلِبَتْ لِكَسْرَةِ السِّينِ ، وَ تُمَدُّ وَ تُقْصَرُ[26].

السِّيمياء و معاجم التأسيس :

لقد جاءت كلمة " سِيمَا " بِصِيَغٍ مختلفةٍ، وكلُّهَا تَحْمِلُ معاني متقاربةً، فهي العلامةُ، والصِّفَةُ، والميزَةُ، والإشارةُ أيضا.

وَ حَمَلَتْ هذه الكلمةُ في الحديثِ الشَّريفِ، المعاني نَفْسَها التي جِيئتْ في آيِ الذِّكْرِ الحكيمِ.

إذا بحثنا في معجماتِ اللُّغَةِ العربيَّةِ، لَوجدْنَا مفهومَ هذَا المصْطَلَحِ يعني : السُّومة – السِّيمة– و السِّيمَاء.و كلُّها تقصد العلامة.

وقد يجيء السيما و السيميا ممدودين بكسرهن، أي بكسر السين – العلامة يعرف بها الخير و الشر(27).

و في اللِّسَانِ(28) : السُّومَةُ و السِّيمَةُ و السِّيماءُ و السِّيمِياءُ : العَلاَمَةُ.

وَ سَوَّمَ الْفَرَسَ : جَعَلَ عَلَيْهِ السِّيمَةَ

وَ قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ : "حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ".

قال الزَّجَّاجُ : رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهَا مُعَلَّمَةٌ بِبَيَاضٍ وَ حُمْرَةٍ.

و قالَ غَيْرُهُ : مُسَوَّمَةً بِعَلاَمَةٍ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حِجَارَةِ الدُّنْيَا. وَ يُعْلَمُ بِسيماها أَنَّهَا مِمَّا عَذَّبَ اللهُ بِهَا.

و عند الجَوْهَرِيُّ : مُسَوَّمَةً : أيْ عليها أَمْثالُ الخُوَاتِمِ.

و أيضاً – و القول لا يزال للجوهري – : السُّومَةُ بالضَّمِّ ، العَلاَمَةُ تُجْعَلُ على الشَّأةِ ، و في الحَرْبِ أَيْضاً.

تَقُولُ مِنْهُ : تَسَوَّمَ.

قال أَبُوبكْرٍ بن دريد : قَوْلُهُمْ عَلَيْهِ سِيما حَسَنَةٌ مَعْنَاهُ عَلاَمَةٌ و هي مأخوذَةٌ من وَسَمْتُ أَسِمُ.

قالَ : و الأَصْلُ في سِيمَا، وَسْمَى، فَحُوِّلَت الواوُ مِنْ مَوْضِعِ الفَاءِ ، فَوُضِعَتْ فِي مَوْضِعِ العَيْنِ، كَمَا قَالُوا مَا أَطْيَبَهُ وَ أَيْطَبَهُ ، فَصَارَ سِوْمَى. وَ جُعِلَتْ الواوُ ياءً لِسُكُونِهَا و انْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا(29).

وَ فِي التَّنْزِيلِ العزيزِ : (وَ الخَيْلِ المسَوَّمَةِ) ،

قالَ أَبُو زَيْدٍ : الخيلُ المسوَّمَةُ الْمُرْسَلَةُ وَ عَلَيْهَا رُكْبَانُهَا ، وَ هُوَ مِنْ قَوْلِكَ : سَوَّمْتُ فُلاَناً إذا خَلَّيْتَهُ وَ سَوْمَهُ أَيْ وَ مَا يُرِيدُ.

وَ قِيلَ : الْخَيْلُ المسَوَّمَةُ هِيَ الَّتِي عَلَيْهَا السِّيما و السُّومَةُ وَ هِي العَلاَمَةُ.

و قال ابنُ الأَعْرَابِيِّ : السِّيَمُ الْعَلاَمَاتُ على صُوفِ الغَنَمِ.

و قال تعالى : "مِنَ الملائكَةِ مُسَوَّمِينَ" قُرِئَ بِفَتْحِ الواوِ ، أَرَادَ مُعَلَّمِينَ ، و الخَيْلُ المسَوَّمَةُ : الْمَرْعِيَّةُ ، و المسَوَّمَةُ : المعَلَّمَةُ.

و قولهُ تَعَالَى : "مُسَوَّمِينَ" . قال الأَخْفَشُ : يَكُونُ مُعَلَّمِينَ ، و يكونُ مُرْسَلِينَ ، مِنْ قَوْلِكَ سَوَّمَ فِيها الخيلَ أَيْ أَرْسَلَهَا ، وَ مِنْهُ السَّائِمَةُ ، وَ إِنَّمَا جاءَ بالياءِ و النُّونِ لأَنَّ الخَيْلَ سُوِّمَتْ وَ عَلَيْهَا رُكْبَانُهَا.

قال اللَّيْثُ : سَوَّمَ فُلاَنٌ فَرَسَهُ إِذَا أَعْلَمَ عَلَيْهِ بِحَرِيرَةٍ أَو بشيءٍ يُعْرَفُ بِهِ.

قالَ : وَ السِّيما يَاؤُهَا فِي الأَصْلِ واوٌ ، وَ هِيَ العَلاَمَةُ يُعْرَفُ بِهَا الخَيْرُ وَ الشَّرُّ.

قالَ اللهُ تَعَالى : "تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ".

قالَ اللَّيْثُ أيضاً : وَ فِيهِ لُغَةٌ أُخْرَى السِّيماءُ بالمدِّ.

قال الشَّاعِرُ :

غُلامٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنِ يَافِعاً لهُ سِيمِياءٌ لاَ تَشُقُّ عَلَى البَصَرْ

تَأْنِيثُ سِيمَا غَيْرَ مُجْرَى.

قالَ الجَوْهَرِيُّ : السِّيما مَقْصُورٌ مِنَ الوَاوِ.

قال تعالى : "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ".

قال : و قَدْ يَجِيءُ السِّيمَا و السِّيمِيا مَمْدُودَيْنِ ؛ وَ أَنْشَدَ لأُسَيْدِ بنِ عَنْقَاءَ الفَزَارِيِّ يَمْدَحُ عُمَيْلَةَ حينَ قَاسَمَهُ ما لَهُ :

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللهُ بِالحُسْنِ يَافِعاً لَهُ سِيمِياءٌ لا تَشُقُّ عَلَى البَصَرْ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ وَ فِي جِيدِهِ الشِّعْرَى وَ فِي وَجْهِهِ القَمَرْ

لَهُ سِيمِياءٌ لا تَشُقُّ عَلَى البَصَرِ أيْ يَفرَحُ بِهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ.

قالَ ابنُ بَرِّي : وَ حَكَى عَلِيُّ بنُ حَمْزَةَ أنَّ أَبا رِيَاشٍ قالَ :

لا يَرْوِي بَيْتَ ابنِ عَنْقَاءَ الْفَزَارِيّ : (غُـلامٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنِ يَافِعاً)

إلاَّ أَعْمَى البَصِيرَةِ ، لأَنَّ الحُسْنَ مَوْلُودٌ و إِنَّمَا هُوَ : (رَمَاهُ اللهُ بالخَيْرِ يَافِعًا) ، قالَ : حَكَاهُ أَبُو رِيَاشٍ عَنْ أَبِي زَيْدٍ ، قالَ الأَصْمَعِيُّ : السِّيماءُ ، مَمْدُودَةٌ ، السّيمِياءُ ؛ أَنْشَدَ شَمِرٌ فِي بابِ السِّيمَا مَقْصُورَةٌ للجَعْدِيِّ.

و لَهُـمْ سِيمَا إِذَا تُبْصِرُهُمْ بَيَّنَتْ رِيبَةَ مَنْ كَانَ سَـأَلْ

و السيماء : العلامة

و جاء في الأساس : سَوَّمَ فرسَه : أَعْلَمَهُ بِسَوْمة و هي العلامةُ ، و خيلٌ مُسَوَّمَةٌ ...

و فلانٌ مُحكَّمٌ مُسَوَّمٌ : مُخَلًّى لا تُثْنَى له يدٌ في أمرٍ. و فيه سِيما الصَّلاحُ و سِيمَاؤُه : قال القطامي :

أَبِي عَنْهُ وَرِثْتُ سوامَ مَجْدٍ وَ كُلُّ أبٍ سَيورَثُ مَا يسيـمُ

وَ عَوْدَةٌ إِلى الجوهري في قوله : السّومة : العلامةُ تُجْعَلُ على الشَّاةِ ، و في الحَرْبِ أيضا.

قال ابن الأعرابي : السِّيمة العلامةُ على صُوف الغنمِ، والجمع السِّيَمُ، و القَصْرُ في الثَّالثةِ لُغَةٌ وبه جاءَ التنزيل : " سِيماهُم في وجُوهِهم" (30).

التراث العربي و مصطلح السيميوطيقا :

يقول محمد سعد الله حول مصطلح السيميوطيقا الحديث (31):

"فالسّيميوطيقا وُضعتْ بِوَصْفِهَا مُصْطَلحاً نقلياً عن (SEMIOTIC) و هي عند لوك: معرفةُ العلاماتِ ، و عند بيرس : نظريةُ العلاماتِ، و عند موريس: النظريَّةُ العامَّةُ

للعلاماتِ، و عند إيكو: العلمُ الذي يدرسُ سائرَ ظواهرِ الثقافةِ بوَصْفِهَا أنظمة للعلاماتِ، و عند سيبيوك: وظيفةٌ للتواصلِ و التعبيرِ.

و لفظ السيميوطيقا مأخوذٌ من الكلمةِ الإغريقيةِ القديمةِ (سيميون)، (semeion) ، وهي تأخذُ معنَى الإشارةِ، ولذلك قد يسميها البعضُ علمَ الإشاراتِ، والرموز .... القابلة منها للتفاهُمِ بين البشر(32).

أي أنَّ الأنظمةَ التي تُمْكِّنُ الكائنات البشريةَ من فَهْمِ بعضِ الأحداثِ، أو الوحدات بوَصْفِها علامات، تحملُ معنًى، و هذه الأنظمةُ هي نَفْسُهَا أجزاءٌ أو نواحٍ من الثقافةِ الإنسانيةِ (33)، فأقوالُنَا تُحدِّدُهَا أنظمةٌ و شفراتٌ، يشتركُ بها كلُّ من يُنْتِجُ و يَفْهَمُ هذه الأقوالَ.

و تضيفُ المعاجمُ العربيَّةُ الحديثةُ معانيَ أُخرى غيرَ العلامةِ منها (الحُسْنُ ، البَهْجَةُ ، القيمةُ ...)(34).

في حين تشيرُ الموسوعاتُ العربيَّةُ الحديثةُ إلى أن السيمياء هي علمُ معاني الألفاظِ الذي يبحثُ في العلامةِ بين حروف الكلمةِ و دلالتها(35).

و التراثُ العربيُّ فَيْضٌ مِنَ الحركاتِ والإيماءاتِ و الإشاراتِ، و الإشاراتُ ضَرْبٌ من العلاماتِ، فكلُّ اشارةٍ علامةٌ، وليستْ كُلُّ علامةٍ إشارة(36).

فالعرب قديما، أدركتْ معاني علامات الاتصال للإشارات الاصطلاحيةِ، عن طريقِ الدِّراسةِ والتجربةِ، كما تُبَيِّنُ المصنفاتُ اللُّغويَّةُ، حولَ المواضيعِ الصوتيةِ، والدِّراساتُ التي قاموا بها في مجالِ الاتصالِ الخاص بالإنسانِ و الحيوانِ على السّواءِ.

و اشتهرتِ العربُ بقراءةِ العلاماتِ، كقراءةِ آثارِ أقدامِ الحيواناتِ و البشرِ، وهو ما يُعْرَفُ لديهم بالقيافةِ، التي قالَ فيها أهلُ النَّظَر والتَّنقيرِ أَنَّهَا: "اسمٌ مشتقٌ من القَفْو، وهو معنى استدلالي"(37).

و المتخصصونَ بهذا العلمِ يُدْعَوْنَ بالقافَةِ، ولهم قُدْرَةٌ تُمَيِّزُهُم عن غيرِهم، وَ تُؤَهِّلَهُم للتفرقةِ بين آثارِ أقدامِ النَّاسِ.

و القيافةُ علمٌ توصَّلَ إليه العرب بقوَّةِ الذَّكَاءِ، وكثرةِ المزاولةِ، وَ تُنْسَبُ القيافةُ لِبني مدلج، وأحيانًا إلى مُضَرَ بنِ نزارٍ بنِ مَعْد، كما اشتهر اليمنيونَ بالكَهَانةِ، وبنو أَسَدٍ بالزَّجْرِ.

قال المسعودي: "و بأرضِ الجفار(38) أناسٌ مِنَ العربِ يتناولُ الإنسانُ من تَمرِ نَخلهم، فيغيبُ عنهم السِّنِينَ، وَ لَمْ يَرَوْهُ، و لا شَاهَدُوهُ، فَإِنْ رَأَوْهُ بعدَ مُدَّةٍ، عَلِمُوا أَنَّه الآخذُ لِتَمرهِمِ، و لا يكادونَ يُخْطِئونَ ....ولا تكادُ تَخْفَى عليهم أقدامُ أيِّ النَّاسِ منهم"(39).

و القيافةُ ضَرْبٌ مِنَ الفراسةِ، تعينُ عليه قُوَّةُ الخيالِ، فيهتدي بآثارِ الأَقْدَامِ على أَصْحَابِهَا، و لقدْ بلغَ العربُ في ذلك مِنَ الأعاجيبِ، إلى ما يكادُ و لا يصدقه العقلُ، إذ كانوا يُمَيِّزُونَ بينَ أَثَرِ الرَّجُلِ والمرأةِ ، و الأعمى و البصيرِ ، و المُثْقَلِ و المخِفِّ، و إنَّ شيئاً مِنْ ذلك لا يزالُ باقياً بين البدو إلى اليومِ.

و إلى جانبِ هذا نجدُ الفراسةَ، و هي الاستدلالُ بهيئةِ الشخصِ و كلامِه و ظاهرِ أعضائِه على أَخْلاَقِه و صِفاتِه، و طبيعةُ الفراسةِ ليستْ علامةً دالةً بنفسِها على نَفْسِها لسائرِ النَّاسِ، بل لفئةٍ معينةٍ ممن رُزِقَتْ قَدْراً كبيراً وخارقاً من الذَّكَاءِ، و قوَّةِ الحِسِّ والتميز، والإدراكِ ... و قد تكونُ الفراسةُ أصعَب إدراكاً من القيافةِ، لأنَّ الأخيرةَ تقومُ على اقتفاءِ الآثارِ بواسطةِ دلائلَ محسوسةٍ، و أمَّا الأولى فهي لا تعتمدُ إلاَّ على النَّظَرِ والمقَارَنَةِ بينَ الأجسامِ والأعضاءِ، والحركاتِ و الكلامِ والصِّفاتِ(40).

و في تفسيرِ قولِه تعالَى : (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُم) أي بما يظهرُ لذوي الألبابِ من صفاتهم كمَا قال الله تعالى (سِيماهُم في وجُوهِهم) و قال تعالى (وَ لَتَعْرِفنّهُم في لَحْنِ القَوْلِ) و في الحديث الشريف[41] : (اتقوا فراسةَ المؤمنِ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله) ثم قرأ قول الله تعالى : (إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلمُتَوَسِّمِينَ) [42].

و الفراسةُ والقيافةُ من العلاماتِ السيميوطيقية لأنّها عِلْمٌ لا يختصُّ به سائرُ النَّاسِ، أي لا يُدْرِكُهُ كُلُّ البَشَرِ.

و يجعلُ الدكتور عبدُ الجليلِ مرتاض الكهانةَ و السِّحْرَ، و بعضَ الفنونِ الشعبيةِ، والتي تعودُ إلى العربِ القُدَامى ضرباً من السيميوطيقية[43] لأنَّها علاماتٌ دالةٌ على أيِّ حالٍ، و تَنُمُّ عن مفاهيمَ فكريَّةٍ و ثقافيةٍ وحضاريةٍ لكَوْنِ أصحابِها يستوحونَ مِنْ أحلامِهم أو رؤاهم دلالاتٍ غيرَ الدَّلالاتِ التي يُشَاهِدُونَها.

كما أن تسميةَ العربِ لأبنائِهم بالأَسَدِ واللَّيْثِ و الكَلْبِ والضَّبِّ .... لم تَكُنْ مقصودةً للدَّلاَلَةِ الماديةِ عَلَى هذِه التَّسْمياتِ، بل كانَ يُنْظَرُ إلى جَوْهَرِ مدلولِ الدَّالِّ أو الرَّامِزِ في داخلِهِ إلى الرُّعْبِ والقُوَّةِ و البطشِ ... و نحوَ ذلكَ.

كما كانتْ لهم مذاهبُ أخرى في تسميةِ أبنائهم[44]و هي طرائقُ تحملُ دلالاتٍ سيميوطيقية.

و يحاول ابنُ فارس تفسيرَ هذه الظاهرةِ بقوله : "مِنْ سُنَنِ العربِ إذ تسمي أبناءَها بحَجَرٍ، وَكَلْبٍ، و نِمْرٍ، و ذِئْبٍ، وَ أَسَدٍ، وما شابهها، وكانَ بعضُهم إذا وُلِدَ لأَحَدِهم ولدٌ سَمَّاهُ كمَا يراه ويسمعه مما يتفاءلُ به، فإنْ رأى حَجَراً تأوَّلَ فيه الشِّدَّةَ و الصَّلابةَ، والصَّبْرَ و البَقَاءَ، و إنْ رأى كلبًا تأوَّلَ فيه الحِراسَة والأُلْفَةَ وَ بُعْدَ الصَّوْتِ، وَ مَنْ رأى نمرا

تأوَّلَ فيه المنعةَ والتيهَ و الشكاسةَ، ومن رأى ذئباً تأوَّل فيه المهَابَةَ و القُدْرَةَ والحشمةَ ..." (45).

و يؤكد الأستاذ عبد الجليل مرتاض على فضلِ السَّبْقِ والمزيَّةِ للعَرَبِ في هذا المجالِ المعرفي، قائلا : "و هذا التفسيرُ : تفسيرٌ سيميوطيقي دلالي في نفسِ الوقت، و هو ما لم يصلْ إليه الغربيونَ، إلا في العصرِ الحديثِ، لأنَّ كُلَّ اسمٍ عبارةٌ عن دالٍّ أو رَمْزٍ، وكدليل عليه (الشيء الخارجي للجسم) ثم إدراكُ هذه الصُّورَةِ الذهنيةِ بمعنى أنَّ العدوَّ حينَ يسمعُ اسمَ اللَّيْثِ فهو يتصوَّرُ هذا المسَمَّى كَأَنَّهُ في هيئةِ أَسَدٍ حقيقي، مما يبعثُ فيه الرُّعْبَ قبلَ لِقَائِهِ ..." (46).

فالعربيَّ كانَ لا ينظرُ إلى الاسمِ الذي يَرْمُزُ إلى المسَمَّى (البشر) بل إلى معاني ودلالاتِ ما يحملُه هذا الاسمُ.

كما أنَّ تفاؤلَ العربِ وَ تَطَيُّرَها بالحيواناتِ(47) أو النباتاتِ قراءةٌ أُخْرَى في مجالِ السيميائية، كما هو مُبَيَّنٌ في شعرِ الشُّعَراءِ القُدامى، إذ اهتمُّوا بموضوعِ السيميائية، فَعَبَّرُوا عن مواضيعَ شَتَّى، تتصلُ بكُلِّ مناحي حياتهم المختلفةِ، فناجَوا الطبيعةَ وحاوروهَا، مُسْتَخْدِمينَ ما أغدقتْ به عليهم لُغَتُهُم من مجازاتِ عديدةٍ.

و لعلَّ دراسةَ القُدامى من اللغويينَ والأدباءِ للإشارةِ، يترتَّبُ عنها مقاصدُ بلاغيَّةٌ متنوعةٌ، وإشاراتٌ مجازيَّةٌ كانتِ البدايةُ الأولى للدَّرْس السيميائي، وهي تعتمدُ أساساً على البداهةِ، فهم الذين قالوا : " العينُ بابُ الْقَلْبِ، وما كان في القلبِ ظَهَرَ في العَيْنِ." (48).

و يمكنُ افتراضُ اسم سام (أبو العرب) لها، و عليه يكونُ الأصلُ الأوّلُ للفظة (السيمياء) عربيّاً علاوةً على وجودِ جذرها و أصولِهَا في المعاجمِ العربية القديمةِ التأسيسية الأولى ، ناهيك ورودها في القرآنِ الكريم.

ثم استخدامُ العربِ القُدَامى لهذا اللفظِ الدَّالِّ على معانٍ يقصدونَها.

المصطلح و علماء اللسانيات العرب :

و أطلق علماءُ اللِّسانياتِ، العربُ على هذا العِلْمِ اسم (السيميوطيقا) وترجموه تارَّةً باسم عِلْمِ الرموز، وتارة أخرى باسم (علم الدلالة) و اقترحوا تسميته في اللغة العربية بالسيميائية أيْ العلامات، وهي تسميةٌ موفقة في استخدامها للكلمة العربية "سيمياء"، أي علامةٌ أو مَلْمَحٌ ، و هو الأفضلُ في إطلاقِ الإسمِ العربي عليه، لأَنَّ النقلَ أولى من الاشتقاقِ في استخدامِ الأسماء الجديدة.

و قد تناولت بحوثٌ كثيرةٌ (السيمياء) منذ التأسيسِ و النشأةِ حتى المعالجةِ الإجرائية للمصطلح(49).

و ذكر (عادل فاخوري) أن العربَ توصلوا إلى وَضْعِ أسسٍ عامة لنظريةِ العلاماتِ أو السيمياء تحتَ عنوانِ الدلالة.

و كان ذلك في إطارِ تعيينِ العلامة التي تربطُ اللفظَ بالمعنى أو رَبْطُ الدَّالِّ بالمدلولِ.

و استعرض الفاخوري أربعَ صُوَرٍ للدالِ و المدلولِ استخدمها العربُ :

1. كونها لفظاً كأسماءِ الأفعالِ الموضوعةِ لألفاظِ الأفعالِ أي : (عباراتُ اللُّغَةِ الماورائية التي تدلُّ على العباراتِ الموضوعةِ لها من اللغة الشيئية).

2. كَوْنُ اللفظِ دالاً ، و المدلولُ غير ذلك، كزيد الدال على الشخص الإنساني.

3. كونُ المدلولِ لفظاً و الدالُّ غير ذلك، كالخطوطِ الدالةِ على الألفاظِ ، مثل : الخط المستقيم ، الخط المنحني ، و نحو ذلك.

4. كَوْنُهَا غير لفظٍ ، كالعقودِ الدالةِ على الأعدادِ، و بهذا تتحصَّلُ دلالةٌ لفظيةٌ مِنَ الصُّوَرِ بين الأولى و الثانية ، و دلالةٌ غيرُ لفظيَّةٍ من الصُّورتَيْنِ الثالثةِ و الرابعةِ.

و يشيرُ أيضاً إلى أنَّ السيمياءَ العربيَّةَ اقترحتْ تقسيماً آخرَ يعتمدُ على نوعية العلاقة الدلاليةِ و هو :

– الدلالة العقلية : يكونُ بين الطرفين علاقةُ عِلَّةٍ و معلولٍ ، مثل : الدُّخَان فهو علامةٌ على النَّارِ ، و الكلامُ الصَّادِرُ فهو قرينةٌ وجودِ المتكلّم.

– الدلالة الطبيعية : يكونُ بين الطرفين علاقةٌ تصويريةٌ ، بحيثُ يكونُ من طَبْعِ المتلقي الإنتقالُ إلى المدلولِ عندَ حضورِ الدَّالِّ مثل : حُمْرَةُ الوجه عندَ الخجل.

و قد رسم الأستاذ محمد سالم سعد الله في كتابه مملكة النص (التحليل السيميائي للنقد البلاغي) لوحةً توضح تقسيمَ الدلالاتِ عند العرب و فروعها(50).

و يقولُ أيضاً في مَوْضِعٍ آخر من كتابه(51): و يمكنُ إجمال ما قيلَ في ولادةِ السيمياء العربية على النحو الآتي :

- مرحلة ما قبل الإسلام.
- علم السحر.
- علم أسرار الحروف.
- مرحلة ما بعد الإسلام (مرحلة الإسلام و ما بعده).

– في القرآنِ الكريم و في المعاجم العربيةِ التأسيسية (العلامة = السمه ، الإشارة).

– الميدان اللغوي / المنطقي / الفلسفي = علم الدلالة.

– الميدان الفقهي (مع علم الأصول) = إشارة النص ، دلالة النص ، دلالة الإقتضاء ، عبارة النص).

أمّا علماءُ اللِّسانِ المغاربة، فقد أولوا اهتماماً عظيما بهذا المجالِ، إذْ حاولوا تحديدَ المصطلح، وتثبيتَ أصوله في الدراساتِ العربية من خلالِ تلك المفاهيمِ البلاغية التي وَظَّفَهَا علماؤنا القُدَامى، في التعاملِ مع النصوص الإبداعيةِ الشعرية والنثرية على السّواء.
كما حاول المغاربةُ تحويرَ معالمَ هذا المصطلحِ.
بما يتطابقُ وخصائصُ النصِّ الأدبي العربي، حفاظاً منهم على تلك القطوفِ الفنية التي تتخلل ثنايا أيّ نصٍّ إبداعي.
و يرى الدكتور عبد المالك مرتاض، أنه ليسَ من السَّهْل الوصول إلى حلٍّ هذه المشكلة المصطلحاتية، حيث إنَّ هناكَ مصطلحين اثنينِ غربيين، مستعملين وهما : السيميائية التي يقترحها مقابلا للمصطلح الأجنبي (Sémiologi , Sémiology) .
و يشدد عبد المالك مرتاض اللهجةَ على من لا يكترث في الاستخدام العشوائي لهذا اللفظ، فيقول : "و من أراد أن يشوّهَ اللغةَ العربيةَ، وبعثو فيها فساداً كبيرا، بأن يستعملَ فيها إختيارا، لفظاً غربيا، فعليه على الأقلِّ أنْ لا يكتبَ هذا اللفظَ سيميولوجيا، ولكن عليه أن يكتبه، سِيمْيُوْلُوْجِي : أي بدونِ ياءٍ بين السين والميم، من أجل تلافي التقاء ساكنين اثنين"(52).
و يفضّلُ أن يستخدمَ كلمةَ السيميائياتية مقابلا للمصطلح الأجنبي (Sémiologues , Semiotics) والغربيون أنفسهم يضطربون في التمييز بين المصطلحين السابقين.
فهل اختلاف لفظيهما يعني إختلافهما دلاليا ؟.
فرولان بارط يعتبر اللفظتين مترادفتين، لكنَّ العالمَ اللسانياتي الدانماركي هجلمسلف(53) فقرر أنه من الأمثل تخصيص مصطلح سيميائيات (Semiotics) للبحوثِ المتعلقة بالمجالاتِ الخاصة بالأدب والسينما، والإشارية ... من حيث تخصيص السيميائية

(Sémiologie, Sémiology) للنظرية العامة لكل هذه السيميائيات (Sémiotique, Sémiotics)[54].

فكأن السيميائيةَ بناءً على هذا التحديدِ تتمحص للعلم والنظرية، أي إلى كافةِ الإجراءات، والأدواتِ و المبادئ (مجموعة النظريات) التي تحكم هذا الحقلَ، وترسمُ حدودَه، وتضبطُ معالمِه، بينما ينصرفُ مفهومُ السيميائيات إلى الممارساتِ التطبيقية، وإلى القراءات التي تحلل النصوصَ بالإجراءات السيماءوية من أجلِ كلِّ ذلك يجب اصطناع هذين الوصفين بناءً على طبيعةِ الموقف العلمي الماثلِ والغاية المعرفية التي تراد، وهذه مشكلة أخرى وكثيراً ما تفضي إلى خَلْطٍ معرفي شديدٍ لدى النقاد العربِ المعاصرينَ.

و قد ألفينا الدكتور عبد الله الغدامي يفرد بحثاً لهذا المصطلح الشائك[55]... فيرى تعدّدَ الأسماءِ، فهناك السيميولوجيا، والدلائلية، و علم العلامة ، والسيمياء[56] فآثر أن يستعملَ اللفظَ الأجنبيَّ (سيميولوجيا).

ويعجب مرتاض عبد المالك من التخريجةِ الاصطلاحية للغدامي لإيثاره للفظةٍ أجنبيةٍ نصفها إغريقي، والنصف الآخر إما فرنسي برسمٍ إملائي معين، وإما إنجليزي برسم إملائي آخر.

و يرفضُ الدكتور عبد المالك مرتاض، الإصرارَ على استعمالِ الألفاظِ الأجنبيةِ في اللغة العربية، مع وجودِ فَيْضٍ فائضٍ من المرادفاتِ العربية، والمستعملة للمعنى نَفْسِهِ.

ويقترحُ علينا مصطلح السيمائية، و الغايةُ مِنْ ذلكَ، مايلي :

1- اقتصادُ حرفٍ واحدٍ من هذا اللفظِ، مادام اللفظان الاثنان يدلاَّنِ في اللغة العربيةِ على شيءٍ واحدٍ باتفاق المعْجَمِيينَ.

2- تلافي اللَّحْنَ الشائعَ لدَى المتعاملينَ حين يضطرونَ إلى تسكينِ ميم السيميائية لطول اللفظ.

3- تَجَنُّبُ استعمالِ لفظٍ أجنبي، مجانًا و بدونِ ضرورةٍ علمية.

4- السيميائية بين الماهية و الوظيفية[57].

مشاهير أعلام السِّيميائية في الغرب :

تنتمي السيميائيةُ – أيّاً كانت التسمية — في أصولها ومنهجيتها إلى البنيويةِ، إذ البنيوية نفسها منهجٌ منتظمٌ لدراسة الأنظمةِ الإشارة المختلفة في الثقافة العامة[58] و من أشهرِ أعلام السيميائيةِ الغرب نذكرُ شارلس ساندرس بيرس، ياكبسون، وامبرتو ايكو، ومايكل ريفاتير، وإن كان دي سوسير هو الذي استخلصَ مُسَمَّى السيميولوجيا، فإن رولان بارت هو الذي مارسَ التحليلَ السيميائي على أكملِ وجه، جاءَ بما يقلبُ مقولةَ سوسير، إذ زعمَ أنَّ اللسانياتِ هي الأصلُ، وأن السيميولوجيا فرعٌ منها، ثم جاء جاك دريدا الذي أخذَ بجهودِ بارت في هذا المجالِ.

و إذا ما حاولنا معرفة مفهوم السيميائية لدى هؤلاءِ، فإننا سنجدُ لديهم اختلافاً كبيرا في تحديدِ هذا المفهومِ، فمنهم من يُعَرِّفُ السيميائيةَ على حدِّ قول عبد المالك مرتاض، على أنها عِلْمُ السّمات.

على حين أن قريماس يجعلُ تعريفاتِهَا تختلفُ باختلافِ الوظيفةِ التي يمكنُ أن نُخَوِّلهَا إيَّاها، فهي طوراً " نظام السّمات"[59] و هي طورا ثانياً مجموعة دالة، قابلة على حيازة شيء من النظام، ومن التمفصل الداخلي التلقائي[60].

و هي طورا آخر تعني : تعيينُ مجموعةٍ دالَّةٍ على وصفها قبليا[61] على حين أنها لدى دي سوسير، تعني العلم الذي يدرسُ حياةَ السِّماتِ ضمن الحياةِ الاجتماعية، إنها تشكل جُزْءاً من عِلْمِ النَّفْسِ الاجتماعي، وبالتالي عِلْمُ النَّفْسِ العام[62] كما يُعَرِّفُهَا في موطنٍ آخر بأنَّها العِلْمُ العام لكلِّ أنظمةِ السِّمات[63].

بينما تذهب جوليا كريستيفا في تعريف السيميائية على أنها مذهبٌ قريبٌ من هذا حين تقرر بأنها تتطلع اليوم إلى أن تكون علما للمعاني، وبحكم ماهي عليه فإن السيميائيةَ هي منهجيةُ العلومِ التي تعالج أنظمة الدوال للعلوم الإنسانية ...

على حين أن بلوم فيلد يرى أنه من الضرورة بمكان النهوض بمحاولاتٍ تسعى إلى تطويرِ مَذْهَبٍ عام للسِّمات[64].

و يرى الدكتور عبد المالك مرتاض بأن السيمائيةَ ليست وقفًا على حَقْلٍ دونَ حقل. و لا على جِنْسٍ من العلم دون جنسٍ آخر، من أجل ذلك أُطْلِقَتْ لدى علماءِ الطبِّ على الأعراضِ التي تكونُ مظنة لمعرفةِ العلل و الأمراض. انطلاقاً من إماراتٍ معينة يبديها العليلُ أو تبدو عليه[65].

و في الدراساتِ اللغوية و الأدبية. نستخدم السيميائيةَ لأجلِ البحثِ في السِّماتِ التي يُعَبِّرُ المرءُ بها عن أغراضِه المختلفةِ في حياته اليومية، الفكرية و العاطفية و السياسية و سواها....

و هي السِّيماتُ التي تتجسَّدُ في الألفاظِ و الرموزِ و الإشاراتِ و الأصواتِ، و الألوانِ و الخطوطِ، و الأبعادِ، إنطلاقًا من عُرْفٍ اجتماعي، أو من إيديولوجيا معينة، مثل اللون الأحمر الذي ينصرفُ بناءً على عُرْفٍ بين الناس إلى الدلالةِ على الخطر، و الحتف و يغتدي اللونُ هنا سمةً تعويضيةً عن كُلِّ لغةٍ اصطناعية، إذ يمكنُ إدراكُ هذه الدلالةَ بدونِ

تكلف، تعلم اللغات التي تتفق في عُرْفٍ عام بين البشر على هذا العهد على تجسيد هذا الخطر، و هذه الشبكةُ من المبلغاتِ المختلفةِ التي يكون يعضها طبيعيا و بعضها الآخر اصطناعيا، هي التي تكون حقلا لنشاط السيميائية لتحديد العلاقات الدلالية (البث والتلقي) (66).

السِّيميائية في التراث الشعري القديم :

للفظ السيميائية حضور في التراث الشعري القديم(67) إذ نصادفُ الكلمةَ مساقة في التعبيرِ عن تجاربَ مختلفةٍ يعيشُهَا الشُّعَراءُ في مختلفِ مناحي حياتهم.

فهذا خِدَاشُ بنُ زُهَيْرٍ يقولُ :

بِأَنَّا يَوْمَ شَمْطَـةَ قَدْ أَقَمْنَا عَمُـودَ المجْدِ إِنَّ لَهُ عَمُوداً

جَلَبْنَا الخَيْـلَ سَاهِمَةً إِلَيْهِم عَـوَابِسَ يَدَّرِعَنْ النَّقْعَ قُودَا

فَبِتْنَا نَعْقِـدُ السِّيمَا وَ بَاتُوا وَ قُلْنَا أَصْبِحُوا الأَنْسَ الحَدِيـدَا

فَجَـاءُوا عَارِضًا بردًا وَجِئْنَا كَمَا أَضْرَمْتَ فِي الغَابِ الوُقُودَا

و يتكرر استخدام اللفظ في شعر الأعشى في قوله :

أَبَتْ أَعْنَـاقُهُمْ عِزاً فَمَـا يُعْطُونَ مِنْ غَشَمَا

عَـلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ عَوَابِسَ تَعْلُك اللُّجَمَا

و توظيفُ الشعراءِ للفظِ السيما لم يكن مقتصراً على المفهومِ الوضعي المتعدّدِ لها فحسب، وإنَّمَا تعدَّاه إلى معناه الاصطلاحي، وما يَحْمِلُهُ من معانٍ تدلُّ على كونهِ منهج الخَلْقِ والإبداعِ، ودلالة على القُدْرةِ والتمكن من الآلياتِ اللغوية للمدونة العربيةِ.

و بردةُ كَعْبِ بنِ زُهَيْرٍ صَرْحٌ مثقلٌ بالتراكيبِ الإبداعيةِ، التي لا يقدر على قراءتها إلاَّ المتلقي المحترف القادرُ على اختراقِ أسوارِ اللامية، وَ سَبْرِ أغوارها.

إنَّه القارئ الاحترافي الذي "يتخطّى المظهريةَ الخارجيةَ، وسياقاتِ البداهة، لينفذَ إلى محصلة الجوهرِ"[68].

إذ تتوالى الصور الإبداعيةُ التي تحملها الوسائلُ التعبيريةُ المختلفةُ فتجد الشاعرَ يُعِيرُ حتَّى الحرفَ اهتماماً فيمنحه قيمةً جمالية، وأهميَّةً في إبراز العلاماتِ، كما هو ثابتٌ في اللاميةِ مع حرف النُّون:

هذه النُّونُ التي تجمعتْ مع مثيلاتِها، مكونةً جمهرةً من النونات، التي تجاوزتْ مظاهرُهَا الخارجية، لتكوّنَ فيما بينها عَبْرَ انسجامِ علائقها بنيةً عميقة، محكمةَ التركيب، ويتضحُ هذا في البيتِ الرابع والثلاثينَ، الذي يقول فيه :

نَوَّاحَةِ رِخْوَةُ الضَّبْعَينَ لَيْسَ لَهَا لـمَّا نَعَى بِكْرَها النَّاعُونَ مَعْقُولُ

فالعلاماتُ السيميائيةُ لحرفِ النون هنا، هي : الحزنُ و المأساة، و الخوفُ و الوحدة.

نواحةٌ – رخوةُ الضبعين – نَعى – الناعونَ.

و قد جاءت النونات موزعةً بين أصلية وزائدة، وحالة الزيادة أنها وردتْ عوضاً من التنوين في المفردِ في آخر المثنى تارةً، وجمع المذكر السالم مرّةً أخرى[69].

و هكذا تجاوزَ كعبٌ بمنهجه السيميائي، البنى التركيبية، إلى أصغرِ مكوّنٍ للبنى الإفرازية، وهو الحرفُ، والأداءُ الإجرائي في نظمه وتضامه مع باقي مكونات الصيغة في نظامٍ لغوي معين، وأثر القواعد النحوية، والبلاغية في توجيه دلالته، وتحديد قصده.

وأنشد أبو العباس ثعلب :

أَتَعْرِفُ أَطْلاَلاً شَجَوْنَكَ بِالخَال وَ عيشَ زَمَانٍ كَانَ فِي العُصْرِ الخَالِي

لَيَالِيَ رَيْعَانُ الشَّبَابُ مُسَلَّطٌ عَلَيَّ بِعِصْيَانِ الأَمَارَةِ و الخَالِ

وَ إذا أنَا خِدنٌ لِلغَوِّي أَخِي الصّبَا و للغَزَلِ المرِيّحِ ذِي اللَّهو وَ الخَالِ

لَيَـالِي تُكْنَى تَسْتَبِينِي بَدَلِّهَا و بالنَّظَرِ الفَتَّانِ و الخَدِّ و الخَـالِ
إِذَا سَكَنَتْ رَبْعًا رَئِمَت رَبَاعَهَا كَمَا رَئِمَ المِتْنَاءَ ذُو الرَّيْثَةِ الخَالِي
و يَقْتَادِنِي مِنْهَا رَخِيمُ دَلاَلُهُ كَمَا اقْتَادَ مُهْراً حِينَ يَألفُهُ الخَالِي

إن توظيفَ الشَّاعرِ لكلمةٍ تتكررُ دائماً هي قافيةُ أبياتِه، إشارة أخرى إلى أنَّ الشعراءَ القُدامى قد امتطوا السيميوطيقا بمعناها الحديث، إذْ تعددتْ أساليبُ استخدامها، كما يبدو في هذه الأبياتِ الشعرية التي تنوعت فيها معاني كلمة (الخال).

إذ تحتاجُ من القارئ درايةً واسعةً بمفرداتِ الكلم العربي وبمقاصدِه ومدلولاته.

(فالخالُ) لو وردت في بيتٍ واحدٍ لأمكنك أن تجعلَ معانيها تتشعبُ وتختلفُ، عبر فلسفة من سيمياء التأويل تعملُ الفكرَ، وتكدُّ العقلَ.

فيجسدها لك الشاعر في دلالتها المتنوعة عبر سُلَّمٍ تمتطيه في ستة أبيات.

فالخالُ التي هي الموضع في البيت الأول وهي الماضي في التاني، والعجب في الثالث، والذي لا زوجة له في الرابعِ، وفي الخامسِ النقطةُ السَّوْدَاءُ، والسادس الذي ليس له مُعِينٌ، والسابع الذي يسوسُ الدواب(70).

ومن هذه التخريجاتِ تنشأ أساليبُ بديعيةٌ، لها أثرها في جماليةِ ورونقِ الشِّعْر.

ومثل هذا ما أنشده المدائني للخليلِ بنِ أحمدَ :

يَا وَيْحَ قَلْبِي مِن دَوَاعِي الهَوَى إِذْ رَحَلَ الجيرانُ عِنْدَ الغُرُوبْ
أَتْبَعْتُهم طَرَفِي وَ قَدْ أَمْنَعُوا وَ فَيْضَ عَيْنِيَّ كَفَيْضِ الغُرُوبْ
بَانُوا وَفِيهم حُرَّةً طَفْلَةٌ تَفْتَرُّ عَنْ مَكْنُونِ حبّ الغُرُوبْ

فأنت ترى أن القافيةَ تتكررُ في الأبياتِ الثلاثة، ولكنَّ دلالتها تختلفُ و تتباينُ في كُلِّ بيتٍ.

فلفظةُ الغروب في البيت الأول تعني غروبَ الشمس، و الغروب في البيت الثاني، يعني جَمْع غَرْبٍ وهو الدلو الكبيرة، و الغروب الثالث عنى به الشاعر الكفرى وهو الطلع(71).

إنَّ الشاعرَ يتلاعبُ بألفاظِ المدونة، التي اتفقتْ حروفُهَا، واختلفتْ معناها، وهذا نهجٌ سيميائي، صَعْبٌ و طويلٌ سُلَّمُه، لا يرتقيه إلا الذي يعلمه سواء أكان المبدع أو المتلقي ، إنه مجالٌ شعري خصب لا يصولُ فيه، و لا يجولُ، إلا اليلمعي الخنذيذ، القادرُ على تحريكِ هذه الاستخداماتِ الدلاليةِ في مَوْضِعها المناسبِ كما يحدده السياقُ، وطبيعةُ الهدفِ الذي يروم تحقيقه من خلالِ الأدواتِ اللغوية، من جهة وما يلحقه من إضافةٍ وإرداف في توسيعِ آفاقِ الدلالة، والمد في أبعاد التأويلِ.

إنَّ اهتمامَ الشعراءِ عَبْرَ العصورِ المختلفةِ، دفعَ الشاعرَ لأن ينحى بالسيميائيةِ منحى مغايراً تتمركزُ إشاراتُه الدلاليةُ في القافيةِ، فترى كيف تتفقُ الوحداتُ الدلاليةُ في قوافي الأبياتِ لتتعدد دلالاتُهَا فتشع على معانٍ مختلفة.

وقد حملتِ المصنفاتُ العديدَ من هاته الأشعار التي ينحرفُ فيها السياق عن المتداولِ المعتادِ بالتعبيراتِ المجازية، و الكلماتِ المتناقضةِ المختارة بين البدائلِ المتعددة، لتوصلك إلى نَصٍّ إبداعيٍّ ثانٍ يوازي النصَّ الإبداعيَّ الأوَّلَ.

الإحـالات

1– لفظ السِّيْمِيَاءُ (بكسر الميم) اسمٌ و مصطلحٌ عربي أصيل، ضرب بجذوره أعماق التراث العربي. لكنَّ بعض الباحثين الأعراب يستعملون لفظ السِّيْمْيَائِيَّة (بتسكين الميم ، و منسوبة بنسبة لاداعي لها) و كذلك تمَّ تأنيثها، و هذا غير جائز و لا لازم. و اشتهر هذا الاستعمال المُسَكَّنُ الميم لكونه ترجمة عن اللفظ و المصطلح الأجنبي.

و اعترض بعضهم –كما سيرد خلال هذا البحث – على هذا المصطلح (المسكن الميم) و أشاروا إلى حذف الياء الساكنة الأولى و ذلك تجنبا لالتقاء الساكنين.

و نعنون هذا البحث باللفظ و الاسم و المصطلح العربي التراثي الأصيل ، الذي لا اعتراض عليه ، و لن يكون لأحد مجالات احتجاج حواليه.

2– أستاذة مساعدة قسم أ بكلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية بجامعة الشلف ؛ و باحثة في موضوع : الظواهر السيميائية في النص الأدبي العباسي بين الأصالة و الحداثة ؛ إشراف الأستاذ الدكتور رضوان محمد حسين النجار ، بجامعة بوبكر بلقايد – تلمسان.

3– أسرار البلاغة – تحقيق محمد الفاضلي – ص .277

4– سوم (سماهم ، مسومين ، مسومة ...) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي – .372

5– سورة البقرة – الآية الكريمة 273

6– سورة آل عمران – الآية الكريمة .14

7– مختصر تفسير ابن كثير 1 / .270

8– سورة آل عمران – الآيات الكريمة 123 – .125

9– مختصر تفسير ابن كثير 1/.316

10– سورة الأعراف – بعض الآية الكريمة .46

11– سورة الأعراف – بعض الآية الكريمة .48

12– سورة محمد – بعض الآية الكريمة .30

13– (يعرفون كلاً بسيماهم) قال ابن عباس : يعرفون أهلَ الجنة ببياضِ الوجوه ، و أهلَ النَّارِ بسوادِ الوجوه.

(يعرفونهم بسيماهم)

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجالٍ من صناديد قريش و قادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم.

(فلعرفتهم بسيماهم) : لعرفتهم عياناً,

راجع : مختصر تفسير ابن كثير 22/2 – 23 و 336/3

و سأشير إلى هذا المصدر – فيما يأتي – بلفظ المختصر.

14– سورة هود – الآيتان الكريمتان 82 – .83

15– سورة الذاريات – الآيات الكريمة 31 – .34

16– المختصر 2 / .228

17– المختصر 3 / .385

18– سورة الفتح – بعض الآية الكريمة .29

19– المختصر 3/.355

20– سورة الرحمن – الآية الكريمة .41

21– المختصر 3/.420

22– مسلم من الحجاج ، الطهارة : 36 – .37

23– ابن ماجة ، الزهر : .34

24– الترمذي ، الجمعة : .74

25– أحمد بن حنبل : 81 – 1 – .174

26– اللسان (لسان العرب لابن منظور) 3 / .2159

27– انظر : مادة (سَوَمَ) : معجم العين للفراهيدي 321/7 – صحاح الجوهري 1955/5 ، جمهرة ابن دريد 257/3 – محيط الفيروزآبادي 135/4 – أساس الزمخشري 469 – لسان ابن منظور 12/.312

28– 2158/3 و ما بعدها.

29– تاج الزبيدي ، مادة سوم ، طبعة بولاق 8 / .350

30– سورة الفتح – بعض الآية الكريمة .29

31– محمد سعد الله – مملكة النص.

32– أنظر كتاب دراسة سيميائية و دلالية ز الرواية والتراث، لعبد الجليل مرتاض، الأبيار، الجزائر، 2004، الصفحة 68.

33– السيمياء والتأويل، روبرت شولز، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (دط) – (دت)، – 15/4

34– المعجم الوسيط ، أحمد حسن الزيّات و آخرون 468/1. و ينظر معجم الرائد – جبران مسعود 853 و معجم متن اللغة ، محمد رضا 257/3.

35– الموسوعة العربية الميسرة : إشراف : محمد شفيق غربال 1056 و ينظر الموسوعة الثقافية : إشراف حسين سعيد 581.

36– والفرق بين الاشارة والعلامة، أن الإشارة تقتضي وجود طرفي : مرسل (بكسر السين) غرضه الإخبار بشيء ما، ثم الإتفاق عليه، ومستقبل (بكسر الباء)، أما العلامة فهي لا تقتضي وجود هذين الطرفين، أنظر المرجع السابق، الصفحة 70.

37– مروج الذهب للمسعودي ، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 1، 1966، 145/2.

38– الجفار، ماء لبني تميم بنجد، وهي بلاد الرمل.

39– المصدر الأسبق، 150/2.

40– عبد الجليل مرتاض، "دراسة سيميائية دلالية في الرواية والتراث" ، الصفحة 73.

41– المختصر 244/1

42– سورة الحجر – الآية الكريمة 75

43– دراسة سيميائية دلالية في الرواية و التراث – ص 74.

و قد آثر إبن خلدون تسمية (السيمياء) بـ (علم أسرار الحروف) و قد تناولها في حديثه عن السحر ، و ذكر أن الفلاسفةيدرجونها في باب الشعوذة (مقدمة ابن خلدون 273 – 275)

و تؤكد دائرة المعارف الإسلامية أن لفظة (سيمياء) من الكلمات العربية القديمة التي تعني السِّمة أو الإشارة أو الإشْعَار و أنَّها. استخدمت في الأصل للإشارة إلى معاني السحر ، و قد أُطْلِقَتْ على علم الطلاسم بصورةٍ عامة. (دائرة المعارف الإسلامية 20/13 –21).

44– لما سُئِلَ العربُ لماذا تسمون أبناءكم بالأسماء المشينة وعبيدكم بالأسماء المستحسنة؟ أجابوا لأننا نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا " الاشتقاق " لأبن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، (دط)، 1995 ، 6/1.

45– فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي، تحقيق أمين نسيب، خط دار الجبل، بيروت، الصفحة 442.

46– دراسة سيميائية دلالية، الرواية والتراث " لعبد الجليل مرتاض "، الصفحة 82.

47– كان العرب يتيمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح، كما هو ثابت في شعر الذبياني وذي الرمة وزهير و غيرهم.

48– العقد الفريد لأبن عبد ربه، تحقيق : أحمد أمين وزملاؤه، لجنة التأليف والترجمة و النشر، ط 1 – (دت) 361/2

49– أنظر على سبيل المثال : علم الدلالة عند العرب (السيمياء) عاطف القاضي – مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 18 – 19، 1982.
الإشارة : الجذور الفلسفية و النظرية اللسانية – بسام بركة – مجلة الفكر العربي المعاصر – العدد 30 – 31 ، 1984
تيارات في السيمياء : عادل فاخوري ضمن كتاب (الموسوعة الفلسفية العربية) المجلد الثاني – إشراف د. محمد زيان.
50– ص 10 – 11.
51– مملكة النص – ص 14.
52– كتاب الرياض، العدد 47، أكتوبر 1997، عن مقالة : قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهاية التأويل، الصفحة 337.
53– C.f greimaret courtes sémiotique. (sémiologie)
54– M.arrivé, la semiotique litteraire, in la semiotique, l'école de paris. P 128
55– الخطيئة والتفكير للغدامي، ص 42 – 43، عن المرجع السابق ، الصفحة 339.
56– المرجع السابق، عن نفس المرجع، الصفحة نفسها.
57– المرجع السابق، الصفحة 343.
58– دليل الناقد الأدبي، البازغي و الرويلي – ط3 – (دت) – الصفحة 177 – 178.
59– Graimast gourtés , op. cit. p. 339
60– المرجع السابق، الصفحة نفسها.
61– المرجع السابق، الصفحة341.
62– George mounin , introduction a la sémiologie paris . minint. P.m. – المرجع السابق، الصفحة نفسها.
63– F.de saussure, cours de linguistique géneral intro,3. – عن المرجع السابق، الصفحة نفسها.
64– G.Kristeva. Op .cit . t.m.p 703 – عن المرجع السابق، الصفحة نفسها.
65– Bloomfield In.f.martinet .la sémiologie. p67 – عن المرجع السابق، الصفحة نفسها.
66– كتاب الرياض. العدد 46 . 1997 قراءة النص بين محدودية الإستعمال. و لا نهاية التأويل لعبد المالك مرتاض الصفحة 344. و قد أوجد الباحثون دراسات تندرج تحت هذا المصطلح: كالسيميائية بالطبيعة و السيميائية الكبرى. و البيوسيميائية و الحكم السيميائي.و الشحنة السيميائية. و التحليل السيميائي. و الإنثو سيميائية. و الحقل السيميائي.و النمو السيميائي. و كثر من هذا المصطلحات المنبثقة من تمهيد مفهوم السيميائية. راجع كتاب دليل الناقد الأدبي. ط 3– الصفحة 177–178.
67– دراسات في الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام/ قضايا وظواهر، للأستاذ الدكتور : رضوان محمد حسين النجار، مطبعة برصالي – تلمسان – الجزائر – ط 2 – 1429 هـ/2009 م، هامش صفحة 203 – 204.
68– المرجع السابق، الصفحة 187.
69– المرجع السابق، الصفحة 202.
70– نضرة الإغريض في نصرة القريض، تأليف : المظفرين الفضل العلوي – تحقيق الدكتوره : نهى عارف الحسن، مطبعة الطربيني – دمشق – 1396 هـ / 1976م – الصفحة 94 – 95.

71– المصدر السابق – ص 93